ANCORA IMPARO

السنة الثالثة

نوفمبر ١٩٢٩ اعرف نفسك بنفسك : فيثاغورس مجلد ٦ العدد ٢٧

عاصفة

موسى — كليم الله

تأليف إدموند فلج Edmond Fleg

عاصفة هوجاء تعصف بفكرك ، وثورة عاتية تملك عليك كل مشاعرك وحواسك، وهزات عنيفة تحرك ما سكن وركد من قرارة نفسك ، وذرات من الشك القاتل المضنى تتطاير فى سمائك يقينك الثابت ومعتقدك الراسخ ، اذا أنت طويت الصفحة الاخيرة من كتاب « إدموند فلج » الذى ترجم فيه عن حياة موسى كليم الله ، واكبر قائد سياسى وزعيم حربى خرج من صلب اسرائيل على كثرة ما أخرج ظهر اسرائيل للعالم من كبار النوابغ ، وعلى ما نثر فوق هذه الارض من صور العبقرية ممثلة فى ابنائه وابناء ابنائه من أقدم عصور التاريخ القديم الى العصر الحاضر ، فاذا ذكرت من ابنائه فى العصور القديمة يوسف وموسى وعيسى واسماعيل وابناء لاوى ، ومن اسلافه ابراهيم خليل الله ، فواجب عليك ان لا تنسى فى هذا العصر دزرائيلى رجل السياسة وبرجسون مهبط وحى الفلسفة ، وانشتين مرجع العلماء وموئل العلم ، ومن قبله هين فى الأدب ، واسبنيوزا فى الفلسفة واللاهوت والسياسة ، وغير هؤلاء ممن تملأ اسماؤهم تواريخ العصور على

مدى الازمان. وكأن الطبيعة قد خصت ابناء اسرائيل بخاصية لم تخص بها غيرهم من أبناء الأرض سوى الاغريق القدماء. فاما عبقرية تبلغ القمم العليا، وقوة تقصر دونها هم الجبابرة، واما بلادة لاتنفع إلا فى تجارة منحطة الاساليب، أو ميوعة فى الفطرة تفوت خنوثة بنات مدين وموآب فى عصر الفتح اليهودى لأرض الميعاد. ولعل هذه الظاهرة تلازم الشعوب العليا من ابناء آدم. فكأن فيهم خاصية تركز العبقرية فى افراد قلائل. وتسلبها من المجموع الأعظم، فتستولى العبقرية على زمام الشعب ويطيع الاكثرون طاعة عمياء. فكأنهم بذلك يكونون عباقرة فى المجموع، مادامت العبقرية هى المسلطة عليهم الآخذة بزمامهم فى الحياة.

***

ولانريد أن نستطرد فى الكلام والشرح قبل أن نعرف القارىء بمن هو «إدموند فلج» مؤلف هذا الكتاب.

ولد أموند فلج فى جنيف سنة ١٨٧٤ وهبط باريس سنة ١٨٩٢ ليدرس فى السوربون حيث تتلمذ على «تورو» «ولالوى» و«البرت توماس» وغيرهم من كبار اساتذة السوربون فى ذلك الحين. إنصرف أربع سنوات (١٩٠٠ - ١٩٠٤) الى النقد الأدبى والمسرحى فكتب للجرائد الكبرى مثل الانترنسيجان والاكلير وجريدة الديبا، ثم ترك الصحافة والعمل بها منصرفاً الى الأدب فألف فى الدراما والشعر والقصص وكتابة المقالات والتاريخ.

وكانت أول أشعاره قطعة نشرها بعنوان «اصغوا يا أبناء اسرائيل» Ecoute Israel - نشرت سنة ١٩١٣، واتبعها بكثير من القطع الاخرى، غير انها كانت كهذه مستمدة من وحى التاريخ اليهودى وهى نزعة تجدها فى كتابة Jewish anthology الذى نشر فى سنة ١٩١٤ وفى روايته التى نشرت فى اللغة الانجليزية تحت عنوان «الصبى النبى» وكتابه «لماذا انا يهودى» Pour Quoi je suis Juif الذى نشر فى الربيع الماضى وكان له دوى عظيم فى كثير من نوادى العلم والادب. اما رواياته الاولى فنزع فيها الى الروح الكوميدية والتحليل النفسى كروايته المعروفه باسم «الوحش» La Bête التى اخرجها «جرميه» فى مسرح «انطوان». واشفع كل هذا بسلسلة من المؤلفات الدرامية أوحت اليه بها سنى الحرب بويلاتها وكوارثها، كما كان لمنازعة السلمية أثر كبير فيها. فمثلا روايته

« بيت الله » La Maison du Dieu التى خرجت فى مسرح الفنون سنة ١٩٢٠ ، عرض فيها بقسيس كاثوليكى وراع بروتستانتى وربانى يهودى . ثم روايته «يهودى البابا» Jui du Pape التى اخرجها «بتيوف» فى مسرح الفنون سنة ١٩٢٦ ، وفيها نرى البابا ويهودياً يأخذهما حلم السلام والسعادة البشرية

أما كتابه «موسى» فآخر ما اخرج قلم «فلج» من الثمرات الكبيرة فقد ظهر فى سنة ١٩٢٨ مع روايته المعروفة «تاجر باريز» وهى رواية كوميدية أظهرها مسرح الكوميدى فرانسيز وخرجها فيه «فيروى» وأخذ الدور الهام فيها

وكل مؤلفات «فلج» مستمدة من الروح اليهودية ، غارقة فى وحى اسرائيل . غير انه لا يعجب من تاريخ بنى اسرائيل بما فيه من التخصص التقليدى ، بل يعجب بما فيه من روح الانسانيه والخير العام . ولقد وفق كل توفيق فى احياء ذلك المثل الاعلى الذى بث العدل وحب السلام وانار بضيائه قلوب الانبياء والمرسلين ، وقد صب ذلك كله فى قالب شعرى حديث مشبوب باقوى المشاعر العالية

ولا جرم ان هذا هو السر فى ان يحوز «فلج» عطف الرجال والنساء من اعلام الادب العصرى على اختلاف منازعهم وشهواتهم ومشاعرهم ذلك العطف الذى تجلى يوم تكريمه حيث رأس مسيو «بنليفيه» الحفلة وقد حضرها كل اعلام الادب والفن والعلم والدين واللاهوت فى فرنسا ، ليؤدوا له واجب التكريم . فكان من الحاضرات مدام ده نواى ومدام ده لارو مرداروس ومن الحاضرين مسيو أميل بوريل وفرانز جوردين ، وكبير رباني فرنسا بجانب برنشتين استاذ اللاهوت البروتستانتي . وخطب يومذاك جوزيف بدييه وفرنسوا ده كوريل وجورج ده بورتوريش رئيس «جمعية حقوق الانسان» ورئيس المعهد الدولى للتعاون الفكرى . وشرب نخبه الأب «مارى أندرى ديو» قائلا : نشرب نخب استعلائك الشخصى ، بل تصعيدك الدائم فى مراقى المحبة والنور . لان النفس التى ترتفع ترفع العالم معها .

هذا هو (إدموند فلج) نعرف به قراء العربية لاول مرة على ما نعلم ، لنعود بعد ذلك الى كتابه (موسى) نستخلص منه ما علق بالذهن بعد قراءة استحالت معها النفس الى صور عديدة كان فى مستطاع (فلج) أن يلبسها فى كل منها ثوباً جديداً ويصبغها بصبغة خاصة

خرج موسى من ارض الفراعنة بعد ان اكتملت فتوته ورجل فرعه واستبانت عضلاته و بعدان اهوى بعصاه على مصرى كان يخاصم عبرانيا فقتله . خرج من مدينة فرعون ميمماً شطر ارض جاهان،فيما بين بلبيس والاسماعيلية وهي الارض التى سكنها ابناء اسرائيل بعد ان هبطوا ارض مصر فى عهد يوسف الصديق . ارض الخصب والمرعى،ارض الدعة والسكون ، أرض الأحلام والسعادة ، بل أرض الميعاد الحقيقى . فاجتازها الى برية سينا ومازال بها حتى اقتحمها ضاربا فى الأرض على قدميه ليس معه من الزاد بقدر مايحمل فلبه من ارادة ، وليس معه من الأرادة بقدر مايحفز هذه الارادة الى الخاطر خوفا من فرعون وقومه ، بعد ان ظهرت يهوديته بعدان كان أميرا مصريا ردحا من الزمان وطوراً من اطوار العمر . وتزوج من بنت شعيب على ان يرعى له الغنم فى أرض مدين شرقى سينا سبع سنين فان اكملها عشرا فمن عنده . وظل موسى يرعى الغنم و يجول بها جولات واسعات فى ارض مدين وفى برارى سدوم وموآب وسينا ، يبحث عن منابت العشب ومجارى المياه ، وقد ينقطع عن اهله اياما بل شهورا ، يذود عن ماله بيده القوية وجنانه المتوثب ونفسه المشبوبة .

وهو بعد سليل ابراهيم خليل الله ووارث يعقوب (اسرائيل) وارث الخيال الخصب والآمال الواسعة العريضة ، وارث ذلك الخيال الذى اخرج ابراهيم من اور الكلدان رافعا علم التوحيد أمام التكثير وهازم النمرود امام الملأ من اهل بابل إذ جعل الله النار برداً وسلاما على ابراهيم

يمتد الخيال بموسى الى تقاليد عشيرته واهله وقد افسحت له الصحراء ماشاء ان يجول الخيال ، فتحت السفوح الموحشة وبين الاعشاب البرية وفى السماء الصافية ونجوم الليل المتألقة ،مجال لخيال كخيال موسى يمتد به من بريات سينا ومدين الى ارض جاهان حيث ينزل اهله ، والى مدن فرعون المشيدة على ارض مصر الخصيبة، الى الارهاق الذى ينزل بابناء اسرائيل و بناته من ايدى المصريين انتقاما لانفسهم من السياسة التى اتبعها يوسف مع المصريين عند مااستوزره الملك الهكسوسى «ابوفيس» على مايقول بعض المؤرخين

تاهيك بما يجول فى خاطره ومايملك عليه زمام نفسه من اشفاق على العبرانيين فى عبودية اهل مصر . ويستغرق فى هذه الخيالات استغراقا و يتمثل امامه سياط

المصريين تهرا جلود العبرانيين ، وقد خصوهم بالشغل فى الطين وعمل اللبنات فاذا اعوزهم التبن ضربوا واذا اعوزهم الماء ضربوا وأهينوا وقطع عنهم الزاد ، فاذا شكوا لم تجبهم الا السياط ولم تتلقفهم الا غياهب السجون . مظالم لم يرو التاريخ من امثالها الا القليل ، واستعباد لم يرهق بمثله الا ابناء إسرائيل فى أرض الفراعنة .

وتتمثل أمامه الكارثة الكبرى والمصيبة العظمى فى قتل الاطفال ذكورا ، وتركهم إناثا سياسة لا يقصد بها الا أن يندمج شعب اسرائيل فى الشعب المصرى ، إذا قتل ذكوره و بقى إناثه واضطررن أو أجبرن اذا ما بلغن الحلم أن يتزوجن من المصريين فيفنى بذلك طابعهم وتموت تقاليدهم . وعندى أن هذا أصح تفسير لهذا الحادث التاريخى الذى تقول الكتب المقدسة إنه لم يقع الا لأن فرعون قد علم من الغيب بأن من أبناء اسرائيل من سوف ينزله عن عرشه . وهى نبوءة لم تتحقق ، لان عرش مصر ظل فى أيدى المصريين بعد خروج موسى بابناء اسرائيل من مصر ، وعلى فرض ان الملك الذى خرجوا فى عهده قد ابتلعه اليم وجيشه اذ كان يتعقبهم

ولقد نشأ موسى على ما يروى سفر الخروج فى ظل الامارة الفرعونيه ، تلك الامارة التى ما استقلت يوما عن سلطة الكهنوت والكهان ولا تلقى افرادها العلم إلا من أيدى قديسيهم الذين ضمتهم جدران المعابد فى مصر القديمة ، وجمعوا فى علومهم بين اوضاع اللاهوت وعلم الايحاء أو السحر على ما يقولون . والظاهر أنهم كانوا قد برعوا فى هذه الفنون براعة كبيرة وتمكنوا منه كل تمكن .

فى هذا الوسط نشأ موسى وفى تلك البيئه حذق العلوم القديمة وبرع فى فنون ما كان لغير أهل الامارة الفرعونية ان ينالوا منها شيئا . وقد عرف من عزة الامارة الفرق بين حرية الناس وبين العبودية ، وأدرك بالعمل والواقع الفرق بين العبد الرقيق والسيد الحر

لهذا كان ينتظر موسى انقضاء السنين العشر بفارغ الصبر ليرجع اذا ما أوفى دينه الى أهله بمصر فيخرج بهم من أرض الفراعنة الى الصحراء وان ماتوا فيها جوعا وعطشا على أن يظلوا فى أرض جاهان عبيدا أرقاء

* * *

ودار الزمان دورته وانقضى أجل الدين الذى كان على موسى نحو صهره شعيب ،

وفصل موسى بزوجه وأولاده وأغنامه وودع أرض مدين واستقبل سيناء غضبان أسفا . غاضباً على فرعون وعلى عشيرة فرعون ، وآسفاً لانه اضطر الى فراق الشيخ الرضى الأخلاق الذى آمنه من خوف وأطعمه من جوع . شعيب الذى كان له بدل الاب أباً وبدل الام أماً ، وظلله بعنايته عشراً من السنين الطوال

«وهل أتاك حديث موسى اذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى» . وكان وسط برية سينا فريدا مع زوجه وأغنامه يهش عليهم بعصاه إذ هو ضال فى وسط الليل البهيم فيترآى له القبس فيترك أهله لعله يأتى بنار أو يهتدى على القرى ، أو يسقط على أشخاص من أبناء آدم وحواء .

وقد تطول عليه الشقة والليل محلولك الاهاب مرخى السدول . وكثيراً ما يعاود الانسان فى مثل هذه الحال أثبت الفكرات فى نفسه ، بل غالب ما يحاول الانسان أن يستجمع ماتفرق بالخوف والفزع شيئا مما تبدد من مجموع فكره ، فتطرأ عليه أخيلته فى المثل العليا التى يعتقد أنها اكبر واجباته فى الحياة . وأى شىء يمكن أن يساور موسى فى مثل حاله الا خيال أهله فى مصر واستبداد المصريين بهم . وهنا وفى مثل هذه الحال يسمع من يناديه (ياموسى) فيصغى واذا به يأمر بأن يخلع نعليه لانه بالوادى المقدس طوى وانه مختار ليذهب برسالة الى فرعون ليطلق سراح اسرائيل شعب الله المصطفى دون بقية العالمين . ومن ذ الذى يخاطبه فى ذلك الا الله الواحد القهار !!!

على هذه الصوره تتكون عندك رسالة موسى ونبوته اذا أنت قرأت «إدموند فلج» على أن تقرأه بين السطور وفى خلال المعانى . أما ظاهر الكتاب فقصة دينية تفسر بمقتضى النصوص التى وردت فى أسفار العهد القديم وفى التلمود وتفسيرات الربانيين .

وفى مثل هذه الصورة تحصل على كثير من الصور الاخرى المتناثرة فى قصة موسى . وكلها فى الظاهر مروية فى قالب لاهوتى لا يغضب أحداً من أهل الاديان العظمى ولكن مرماها الخفى يرمي الى نظرية واحدة هى أن الدين فلسفة وضعت على أن توافق عقلية الجماهير .

اسماعيل مظهر